

## الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه الأصول الثلاثة :

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : «بَابُ الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩] فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ».

\*\*\*\*\*

فهذه خاتمة الرسالة الأولى من الرسائل التي صُدِّرت بها الأصول الثلاثة . في هذه الرسالة تكلم رحمه الله تعالى عن واجب من الواجبات على كل مسلم ومسلمة ألا وهو: تعلم أربع مسائل ، وذكر المسائل الأربعة وهي: العلم ، والعمل ، والدعوة ، والصبر ، وذكر عليها الدليل وذلك هو قول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَالْعَصْرُ (١) إِنْ

الْإِنْسَانُ لَفِي خَسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ .

ثم ختم رحمه الله بهذه الخاتمة التي بين فيها مكانة العلم العظيمة ومنزلته العلية ، وأنه به يُبدأ ، وأنه مقدم على القول والعمل ؛ وذلك لأن قول الإنسان إن لم يكن عن علم فقد لا يكون قولاً سديداً ، وعمل الإنسان إن لم يكن عن علم قد لا يكون عملاً صالحاً . ولهذا لا يميّز بين القول السديد وغير السديد ، وبين العمل الصالح وغير الصالح إلا بالعلم ، ولهذا كان العلم مقدماً على القول والعمل ، وأن تعلم المسلم فرائض الدين واشتغاله بمعرفتها وتعلّمها مقدّم على الأقوال التي هي الذكر والدعاء ونحو ذلك ، ومقدم على الأعمال التي هي العبادات ؛ لأن العبادات لا تصح إلا بالاتباع ، والاتباع لا يُعرف إلا بالعلم ، ولهذا كان العلم مقدماً .

فنقل رحمه الله عن الإمام البخاري صاحب الصحيح ، نقل عنه في كتاب الصحيح في كتاب العلم من كتابه الصحيح ، عقد ترجمةً عنوان لها بقوله «بَابُ الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ» أي أن العلم مقدم ، والمراد بالعلم هنا: العلم الفرض ؛ لأن العلم نوعان : علم فرض ، وعلم ندب . وأيضاً العلم نوعان : علم عيني ، وعلم كفائي ؛ العلم الكفائي : هو الذي إذا حصل من البعض كفواً الباقيين ، وإن لم يحصل من الجميع أثموا جميعاً .

فالشاهد أن العلم الفرض العيني هذا مقدم على القول ومقدم على العمل ؛ لأنه لا يستطيع أن يؤدي فرائض الإسلام ولا يستطيع أن يقوم بواجبات الدين إلا إذا كان عنده علم بما افترضه الله سبحانه وتعالى ، وعنده علم بكيفية أداء ما افترض جل وعلا ، وهذا كله يتطلب من العبد أن يتعلم فرائض دينه والواجبات التي أمره بها ربه جلّ وعلا وأمره بها رسوله عليه الصلاة والسلام .

((قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: بَابُ الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ)) أي أن العلم مقدم على القول والعمل ، وعبادات الإنسان إن لم تكن مبنية على العلم فإنه سيقع في أنواع من الجهالات والبدع والضلالات التي ما أنزل الله سبحانه وتعالى بها من سلطان ، قد قال بعض السلف وهو عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «من عبد الله أو من دعا إلى الله بغير عم كان ما يفسد أكثر مما يصلح» ؛ فالعلم مقدم وبه يبدأ .

والبخاري رحمه الله لما قرر هذا الأمر في هذه الترجمة ، وفقه البخاري يؤخذ من تراجمه ، لما قرر هذا الأمر استدل عليه بالآية الكريمة في سورة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وهي قول الله جل وعلا : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثَاكُمْ﴾ (١٩) ﴿فبدأ جل وعلا بالعلم ، وقد صح عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال في سياق آخر - لكنه ينطبق أيضاً على هذا السياق ونظائره - قال : ((نبدأ بما بدأ الله به)) لما صعد عليه الصلاة والسلام إلى الصفا بدأ بالصفا وقال : ((نبدأ بما بدأ الله به)) وتلا الآية الكريمة ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ [البقرة: ١٥٨] ؛ فالله بدأ بالصفا إذاً نبدأ بما بدأ الله سبحانه وتعالى به ، لأن البدء بالشيء يدل على تقديمه ويدل على الاهتمام به وأنه هو المقدم .

وهنا نلاحظ الآية الكريمة ذكر فيها علم وذكر فيها قول ، ذكر فيها علم - طلب علم - ﴿فَاعْلَمْ﴾ ، وذكر فيها قول وهو ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ لكنه قدّم العلم على القول ، فعلم بذلك أن العلم مقدم ؛ مقدم على التهليل والاستغفار والذكر والحمد وأنواع ذلك من الأذكار ، ومقدم أيضاً على العبادات ، لأن من يأتي بهذه الأعمال ومن يأتي بهذه الأذكار عن غير علم سيقع في أنواع من البدع ، سيقع في أنواع من الضلالات التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ، ولهذا كان العلم مقدماً .

وتكاثرت النصوص في القرآن والسنة في الترغيب فيه وبيان فضله وبيان فضل أهله ، وعظيم ثوابهم عند الله جل وعلا ، قد جاء في الحديث الصحيح حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحيتان في الماء ، وإن العلماء ورثة الأنبياء فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)) . قال في صدر هذا الحديث ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة)) ؛ فالعلم هو الذي يمهد لك الطريق إلى جنات النعيم ، ومن المعلوم أن الجنة لا تنال بعد رحمة الله سبحانه وتعالى إلا بالإيمان والأعمال الصالحة ، ((لن يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة)) ، كيف السبيل إلى معرفة الإيمان وأصوله بدون العلم ؟ وقد قال لنبه صلى الله عليه وسلم في القرآن قال : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا

كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَالْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴿٥٢﴾ [الشورى: ٥٢] فالإيمان لا يُعرف إلا بالعلم الذي هو وحي الله جل وعلا وتنزيله ؛ كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . وفد عبد القيس لما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم «مُرنا بقولٍ فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة؟» قال : ((أمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الإيمان بالله؟)) قالوا : «الله ورسوله أعلم» الإيمان لا يُعرف إلا من طريق الشرع ، من طريق الوحي ، قال : ((الإيمان بالله: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم )) ، شرح لهم الإيمان . إذاً كيف السبيل إلى معرفة الإيمان بعقائده التي في القلوب وأعماله التي تكون على الجوارح؟ إلا بالعلم ، ولهذا العلم مقدم وبه يُبدأ . ومن الخطأ الفادح أن يشتغل الإنسان بعباداتٍ وقرباتٍ وأذكارٍ ودعواتٍ ولا يكون قد بنى ذلك على العلم الذي هو وحي الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والله يقول ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤] ، ولهذا إذا فارق الإنسان العلم وجانبه وابتعد عنه ضاعت أعماله وذهبت ولم ينتفع بها .

ولهذا كان طلب العلم فريضة فيما يتعلق بما لا يتم الواجب إلا به من فرائض الدين وواجباته حتى يكون المسلم في عبادته يعبد الله على بصيرة وعلى بينة ، والآية واضحة الدلالة على ذلك ، بدأ بالعلم ثم ثنى بالعمل ، فقدّم ربنا جل وعلا العلم على العمل ، قال : ﴿ فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ ؛ وذكر هنا في هذا المقام أعظم علمٍ على الإطلاق ، ﴿ فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ هذا أعظم علم ، أعظم شيء يتعلمه العبد في هذه الحياة هو ؛ المنصوص عليه في الآية ﴿ فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، ليس في العلوم التي بين الناس علمٌ أشرف ولا أعظم من هذا العلم ، ويقولون شرف العلم من شرف المعلوم ، وأي أمرٍ أعظم وأشرف من العلم بالتوحيد الذي هو حق الله على العبيد ، والذي إنما خلُقوا لأجله وأوجدوا لتحقيقه ، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، ولأجله بعث الرسل جل وعلا وأنزل الكتب ، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥٠] فهذا أشرف العلم وأعظمه وأجله على الإطلاق ﴿ فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ولهذا انظر إلى ما خرجته مسلم في صحيحه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة )) .

فالعلم بأنه لا إله إلا الله هذا أشرف علمٍ على الإطلاق ، ولا يوجد علم من العلوم أشرف من هذا ، ولهذا لما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام شعب الإيمان قدّمه ، قال : (( الإيمان بضئ وسبعون شعبه أعلاها قول لا إله إلا الله ،

وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياءُ شعبةٌ من شعب الإيمان)) ، ولما ذكر عليه الصلاة والسلام مباني الإسلام قدّمه قال : ((بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام)) فقدّمه ؛ قدمه في ذكر شعب الإيمان ، وقدمه في ذكر مباني الإسلام فهو العلم المقدم ، وهو أولى العلوم ، بل هو ركيزة العلوم وأساسها ، وقوام الدين وقيامه ، وأصل الملة التي عليه تبنى ، قال الله جل وعلا في بيان هذا وعظم شأنه ومكانته في العلوم قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ۖ ﴾ الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله» كلمة التوحيد ﴿ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] فإذا أردت أن تعرف مكانة العلم بأنه لا إله إلا الله من بين العلوم فهو كمكانة الأصول من الأشجار والقواعد من البنيان ؛ كما أن البناء لا يقوم إلا على عماده ، والأشجار لا تقوم إلا على أصولها ؛ فالدين لا يقوم إلا على هذا الأصل العظيم والأساس المتين «لا إله إلا الله» ، ولهذا قال : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ما المراد بقوله اعلم أنه لا إله إلا الله ؟ هل المراد العلم بهذه الألفاظ ؟ -ألفاظ هذه الكلمة- أم أن المراد أن يفهم معناها ومدلولها ومقصودها فهماً صحيحاً ؟

وتأمل في هذا قول الله سبحانه ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] ، قال غير واحد من المفسرين: إلا من شهد بلا إله إلا الله وهم يعلمون معنى ما شهدوا به ، فإذا الذي ينطق «لا إله إلا الله» لا يكفي مجرد النطق ، لا يكفي مجرد التلفظ ، لابد أن يعلم معنى هذه الكلمة وأن يعرف مدلولها ، وهذه الكلمة تدل على التوحيد والإخلاص لله تبارك وتعالى وإفراده وحده بالعبادة والبراءة من الشرك والخلوص منه ؛ لأن هذه الكلمة قائمة على ركنين : نفْي وإثبات ، وليس من أهلها من لا يفهم ما دلت عليه ، قائمة على ركنين : نفْي وإثبات ، نفْي في أولها ، وإثبات في آخرها ، ولا يكون من أهلها إلا من عرف ما نفت فنفاه ، وما أثبتت فأثبتته ليكون بذلك من أهلها حقاً وصدقاً ، لا أن يقول لفظاً لا يدري ما هو ، وكلاماً لا يعرف معناه ، قال : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ اشترط العلم ليكون العبد من أهلها ، ف«لا إله إلا الله» أولها نفْي وآخرها إثبات ؛ أولها نفْي عام للعبودية عن كل من سوى الله ، وآخرها إثبات خاص للعبودية بكل أنواعها لله وحده ؛ ذلاً وخوفاً ورجاءً ورغماً ورهباً وذبحاً ونذراً وغير ذلك ، كل ذلك لله ، ﴿ قُلْ إِن صَّلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢] فهذه الكلمة تدل على التوحيد ، تدل على الإخلاص ، تدل على وجوب إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة والبراءة من الشرك .

والله في الآية يقول : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ؛ انتبه هنا ثمة دلائل وبراهين عديدة وكثيرة ذكرت في كتاب الله وذكرت في سنة النبي عليه الصلاة والسلام تهديك وترشدك إلى الحقيقة وهي أنه «لا إله إلا الله» لا معبود بحق إلا

الله سبحانه وتعالى ، وكما قلت القرآن اشتمل على ذكر دلائل كثيرة جداً ترشد العبد وتدله إلى أنه لا إله إلا الله . ولخص هذه البراهين وجمع جملة طيبة منها الإمام العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى في كتابه «تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن» عند تفسيره لهذه الآية من سورة محمد ، ونستمع إلى كلامه رحمه الله فإنه نفيسٌ للغاية ومفيدٌ جداً .

قال الإمام السعدي رحمه الله تعالى عند قول الله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ : «العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته لمعنى ما طُلب منه علمه ، وقامه أن يعمل بمقتضاه . وهذا العلم الذي أمر الله به . وهو العلم بتوحيد الله . فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحدٍ كائناً من كان، بل كل مضطر إلى ذلك . والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا هو أمور :

أحدها بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته ؛ فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال .  
الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية .  
الثالث: العلم بأنه منفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته والتأله له وحده لا شريك له .

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر ومن النعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به؛ فإن هذا داعٍ إلى العلم، بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها .  
الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عُبِدَت مع الله عز وجل وأُتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعبديها نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمثقال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو ، وبطلان إلهية ما سواه .

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه .

السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقا وعقولا ورأيا وصوابا وعلمًا ؛ وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون ، قد شهدوا لله بذلك .

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه .

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة

التوحيد من كل جانب! فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشُّبه والخيالات، ولا يزداد على تكرر الباطل والشبه إلا غمواً وكمالاً. هذا؛ وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير وهو تدبر هذا القرآن العظيم والتأمل في آياته فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجملته ما لا يحصل في غيره» أ.هـ

هذا كلام عظيم جداً يبين فيه رحمه الله تعالى براهين القرآن ودلائله وشواهد المتنوعة الدالة على أنه لا إله إلا الله ، وهذا الطرائق والبراهين التي أشار رحمه الله إلى جملة منها هي براهين أبدى الله عز وجل فيها وأعاد في كتابه ، وتكررت في مواضع عديدة منه ؛ كل ذلكم ترسيخاً للعلم بأنه لا إله إلا الله ، وليكون هذا في قلب المسلم أرسخ ما يكون رسوخ الجبال الرواسي ، وكلما عظمت عناية العبد بمعرفة هذه الشواهد والبراهين من خلال ما دلّ عليه كتاب الله عز وجل وما دلت عليه سنة النبي صلى الله عليه وسلم زاد التوحيد في قلبه تمكناً وزاد الإيمان رسوخاً في قلبه . وشرح هذه البراهين التي أشار إليها رحمه الله والوقوف عندها وذكر شيء من شواهدا أمرٌ تطول به العبارة، لكنني أشير إلى إشاراتٍ ينفع الله جل وعلا بها .

عندما تقرأ آية الكرسي التي هي أعظم آية في كتاب الله بدأت أول ما بدأت بهذا الأمر الذي أمر الله - عز وجل - أن نعلمه ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ بدأت به قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا صدر آية الكرسي ، ثم أتبع ذلك بالبراهين والدلائل والشواهد على ذلك ، قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] عندما يقف المسلم على هذه البراهين ويطلع عليها برهاناً ، وفي آية الكرسي اثنا عشر برهاناً أنه «لا إله إلا الله» ، عندما يقف على هذه البراهين ويصح فهمه لها ودرايته بمدلولها ووقوفه على مقصودها أيمن أن يقبل قلبه على غير الله طلباً ودعاءً ، رجاءً ورغباً ؟ أبداً لا يمكن ؛ لأن هذه البراهين تأخذ بالقلب مأخذاً عظيماً إلى التزام التوحيد ولزوم الإخلاص ومجانبة الإشراك واتخاذ الأنداد ، اقرأ خواتيم سورة الحشر صدرها بهذه الكلمة العظيمة قال : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤] من يقف على هذه البراهين الجليات والحجج الواضحات على وجوب توحيد الله وإخلاص الدين له تبارك وتعالى أيمن أن يتجه قلبه إلى غير الله سؤالاً ورغباً ورهباً وطلباً ؟ حاشا وكلا . ولهذا من يتجهون في دعواتهم إلى غير الله من المقبورين أو غيرهم طامعين راجين متذللين خاضعين

أين هم من هذه الدلائل ؟ أين هم من هذه البراهين والحجج البينات في كتاب الله سبحانه وتعالى ؟ لولا أن القلوب طمست والأبصار عميت عن الشواهد البينة والحجج الظاهرة المضئئة . فإذا وقف الإنسان على هذه البراهين أدرك يقيناً وعرف قطعاً أنه «لا إله إلا الله» أي لا معبود بحقٍ سواه جل وعلا، وإذا وقف المسلم على هذه البراهين زاد توحيده رسوخاً ، وإيمانه تمكناً ، وإقراره ثباتاً ، وابتعدت عنه الشبهات الصارفة والأهواء الجارفة التي ضيَّعت كثيراً من الناس عن الحق والهدى . ولهذا ينبغي على المسلم أن يعنى بهذه البراهين في كتاب الله التي تعينه على فهم أنه لا إله إلا الله ، أي لا معبود بحقٍ سواه . هذا أمر .

الأمر الآخر : قول الله جل وعلا ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذا الأمر يدل على وجوب هذا العلم وأنه فريضة ، بل أنه أعظم الفرائض ، لأن الله سبحانه وتعالى قدَّمه وبدأ به ، العلم بأنه «لا إله إلا الله» ، وهذا يتناول العلم بمعنى هذه الكلمة والركنين الذين قامت عليهما النفي والإثبات ، والعلم أيضاً بشروط هذه الكلمة التي لا تُقبل إلا بها ، ف«لا إله إلا الله» شأنها شأن أمور الدين الأخرى ، الصلاة لا تقبل إلا بشروط ، الحج لا يقبل إلا بشروط ، الصيام لا يقبل إلا بشروط مبينة في كتب الفقه ، و«لا إله إلا الله» لا تقبل إلا بشروط بينها أهل العلم مستنبطين لها ومستخرجين لها من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا قيل لو هب بن منبه وهو من علماء التابعين ؛ قيل له : أليست لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟ قال : «بلى ، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك ، وإلا لم يفتح» يشير إلى شروط هذه الكلمة . وقيل للحسن البصري رحمه الله : أليس من قال «لا إله إلا الله» دخل الجنة ؟ قال : «من أدى حقها وفرضها دخل الجنة» يشير إلى شروط هذه الكلمة .

وأهل العلم عندما تتبعوا كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام في بيان ما تتوقف «لا إله إلا الله» في قبولها عليه تبين أن «لا إله إلا الله» لها شروطٌ سبعة لا تكون مقبولةً إلا بها ، وهي :  
أولاً : العلم بمعنى هذه الكلمة نفيًا وإثباتًا المنافي للجهل .

ثانياً : اليقين المنافي للشك والريب .

ثالثاً : الإخلاص المنافي للشرك والرياء .

رابعاً : الصدق المنافي للكذب .

خامساً : القبول المنافي للرد .

سادساً : الانقياد المنافي للترك .

سابعاً : المحبة المنافية للبغض .

علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصدقك مع محبةٍ وانقيادٍ والقبول لها

فهذه شروطٌ سبعة لا تكون «لا إله إلا الله» مقبولة إلا بها . وليس المراد بهذه الشروط أن تُعرف بل المراد بها أن تحقق ، ولهذا قال بعض أهل العلم : كم من إنسان يجري في هذه الشروط جري السهم -يعني سريعاً في ذكره لها- ولكنه لا يحققها!! وكم من عامي لو قيل لو اعددتها لا يحسن لكنه يحقق هذه الشروط . فإذا العبرة بتحقيق هذه الشروط والقيام بها والإتيان بها ليكون الإنسان بذلك من أهل «لا إله إلا الله» حقاً وصدقاً .

❖ أما العلم فدلّيه قول الله سبحانه وتعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] ، وقوله صلى الله عليه وسلم : ((من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة)). .

❖ ودليل اليقين قول الله سبحانه : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥] أي أيقنوا ولم يشكوا، وفي صحيح مسلم قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؛ لا يلقي الله بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما إلا أدخله الله الجنة)) فاشترط عليه الصلاة والسلام اليقين .

❖ وأما الإخلاص فدلّيله قول الله تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] .

❖ وأما الصدق فدلّيله قول الله سبحانه وتعالى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١٠] أي كاذبون في شهادتهم لأنهم غير صادقين فيها مع الله جل وعلا .

❖ وأما المحبة فدلّيلها قول الله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] .

❖ وأما الانقياد فدلّيله قول الله تعالى : ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤] .

❖ وأما القبول فدلّيله قول الله سبحانه : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَتَنَا لَتَارِكُوا آلِهَتَنَا

لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿[الصفات: ٣٥-٣٦] .

فهذه شروطٌ سبعةٌ لكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» لا تُقبل هذه الكلمة من العبد إلا إذا أتى بها ، قال أحد أهل العلم نظماً :

وبشروطٍ سبعةٍ قد قُيدت      وفي نصوص الوحي حقاً وردت  
فإنه لا ينتفع قائلها      بالنطق إلا حيث يستكملها  
العلم واليقين والقبول      والانقياد فادرٍ ما أقول  
والصدق والإخلاص والمحبة      وفقك الله لما أحبه

هذه في «سلم الوصول» للشيخ حافظ الحكمي رحمه الله، وله شرحٌ عليها نافعٌ ومفيد جداً في كتابه معارج القبول.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ ؛ الاستغفار عمل ويكون باللسان لكن الله ذكره بعد العلم بالتوحيد.



ولاحظ هنا في الآية فائدة عظيمة وهي: أن الله سبحانه وتعالى جمع بين التوحيد والاستغفار ، والتوحيد والاستغفار هما أعظم الأمور التي يحصل بها غفران الذنوب ، ففي الحديث القدسي حديث أنس بن مالك الذي رواه الترمذي وغيره يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أنه قال : ((يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة)) ؛ فذكر في هذا الحديث أعظم أسباب مغفرة الذنوب وهي: الدعاء مع الرجاء ، والاستغفار ، والتوحيد .

والتوحيد أساس المغفرة ، ومن لم يكن ذا توحيد فلا مطمع له في مغفرة الله إذا مات على ذلك ، لقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] .

والاستغفار شأنه عظيم في محو السيئات ، ولهذا تأتي أذكار ودعوات نبوية عديدة فيها التوحيد والاستغفار معاً ، مثل دعوة ذا النون جمعت بين الأمرين ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ، ومثل سيد الاستغفار ((اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)) جمع فيه بين التوحيد والاستغفار ، وفي الدعاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ((أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه))، وجاء في أحاديث كثيرة يجمع فيها عليه الصلاة والسلام بين هذين الأمرين التوحيد والاستغفار؛ وذلك أنهما أعظم ما ينال به العبد غفران الذنوب ، ولهذا كان حرياً بالعبد أن يُعنى بالتوحيد تحقيقاً له في نفسه ، وأن يعنى أيضاً بطلب المغفرة له وإخوانه .

قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وهذا أيضاً فيه دلالة على شرف وفضيلة الاستغفار للمؤمنين ، وقد ذكر الله عز وجل ذلك صفةً للأنبياء وصفةً لأهل الإيمان قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ

لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠] ، فاستغفارك للمؤمنين شأنه عظيم وثوابه عند الله تبارك وتعالى جزيل ، وقد جاء في الطبراني بإسنادٍ جوده بعض أهل العلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((من استغفر للمسلمين والمسلمات كان له بكل واحدٍ منهم حسنة)) ؛ أي أنك إذا قلت في استغفارك " اللهم اغفر لي وللمسلمين والمسلمات " كان لك بكل مسلمٍ ومسلمة حسنة من الأولين والآخرين ، فهي حسناتٌ بالملايين وليست بالآلاف تفوز بها إذا دعوت هذه الدعوة . فطلب المغفرة لك وللمؤمنين هذه من الدعوات العظيمة ، ويدلك على عظمتها وشرفها أن الله سبحانه وتعالى قرن الأمر بها بالأمر بالتوحيد الذي هو أشرف الأمور وأعظمها على الإطلاق .

قال : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ وهذا أيضاً من براهين التوحيد ودلائله ، ومن الأمور التي تقوي الصلة بالله تبارك وتعالى في كل وقتٍ وحين ، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي يعلم أحوالكم كلها وتصرفاتكم جميعها لا يخفى عليه منكم شيء ، فالإنسان عندما يغدو في صباحه في أعماله ومصالحه ذاهباً هنا وهناك رب العالمين على علمٍ به ، وإذا ثوى وأوى إلى فراشه ونام في غرفته خالياً وحده أو معه غيره في مكانٍ مظلم الله عليهم به ، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ ؛ فهو جل وعلا عليهم بالعباد مطلعٌ عليهم ، ولهذا من الأمور التي تعين الإنسان على تتميم إيمانه وتقوية دينه وتقوية صلته بربه تبارك وتعالى: أن يعلم أن ربه سبحانه وتعالى مطلعٌ عليه أينما كان ، ويراه أينما ذهب ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] ، ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤] ؛ فعلم العبد بأن الله سبحانه وتعالى عليهم به مطلعٌ عليه هذا أكبر واعظٌ له . وقد ذكر الإمام الشيخ الشنقيطي رحمه الله في تفسيره أن العلماء أجمعوا على أن أكبر واعظٍ علمك بأن الله عليهم بك مطلعٌ عليك ، قال هذا باتفاق أهل العلم أكبر واعظ ، ولهذا ترى أكثر الآيات في القرآن آيات الترغيب وآيات الترهيب تراها محتومةً بهذا «والله بما تعملون خبير»، «والله خبيرٌ بما تعملون» ، «والله بصيرٌ بما تعملون» ، ونحو ذلك من الخواتيم لكثير من آي القرآن الكريم ، وهنا في هذه الآية ختمها بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي على كل حال وأينما تكونون ، في الغدو والرواح ، في الليل والنهار ، في كل وقتٍ وحين ؛ الله عليهم مطلعٌ عليكم لا تخفى عليه منكم خافية ؛ فهذا كله من الأمور التي تعين العبد على تحقيق إيمانه وتتميم دينه وتقوية صلته بربه تبارك وتعالى .

قال رحمه الله : ((فبدأ بالعلم قبل القول والعمل)) أي بدأ هذه الآية الكريمة بالعلم قبل القول والعمل ، وهذا وجه استدلال الإمام البخاري رحمه الله بهذه الآية على بدء العلم وتقديمه على الأقوال والأعمال . يقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى تعليقاً على هذا الموضع : «استدل المصنف رحمه الله بهذه الآية الكريمة على وجوب البداء بالعلم قبل القول والعمل كما استدل بها البخاري رحمه الله على صحة ما ترجم به ؛ وذلك أن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأمرين : بالعلم ثم العمل ، والمبدوء به العلم في قوله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ، ثم أعقبه بالعمل في قوله ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ ؛ فدل على أن مرتبة العلم مقدمة على مرتبة العمل ، وأن العلم شرطٌ في صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به ، فهو مقدمٌ عليهما لأنه مصحح النية المصححة للأعمال» أ.هـ. ونكتفي بهذا القدر ، والله تعالى أعلم .

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه .